

سورة الإسراء

﴿الآيتان: 99 - 100﴾

الدرس

25

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف الحجج التي واجه الله سبحانه بها منكري البعث.
- 2- أن أستنتج سبب وصف الله تعالى الإنسان بالبخل والشح.
- 3- أن أسترشد بالقرآن الكريم في إنفاق مالي بما يرضي الله تعالى.

تمهيد

بعد رد الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة على منكري النبوة؛ بين في هاتين الآيتين بطلان عقيدتهم في البعث مستدلاً على ذلك بقياس التمثيل، ذلك أنهم استبعدوا إعادة خلق الإنسان بعد أن يصير تراباً ورفاتاً، فأجاب الله عز وجل عن هذه الشبهة الواهية بأن من قدر على خلق السموات والأرض وهي أكبر من خلق الإنسان، قادر على إعادتهم بأعيانهم.

كيف رد الله تعالى على منكري البعث؟ وما المقصد من وصفهم بالبخل والشح؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ يُعْلَمُ أَنِّي خَلُقُ
مِثْلَهُمْ وَجَعَلُ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبْرَأَ الْكَاذِبِينَ إِلَّا كُفُورًا ۝ 99﴾ **فُل لَّوْ
أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَرَّابِي رَحْمَةً رَّبِّي إِذْ أَلَّا مَسْكُتُمْ خَشْيَةَ إِلَهِ نَبَاقٍ وَكَانَ إِلَهِ نَسْرٍ
فَتُورًا ۝ 100﴾ [سورة الإسراء: 99-100]**

أتأمل الآيتين: 99 - 100 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: أَجَلًا - خَزَائِنٍ - لَمَّا مَسَكْنْتُمْ - فَتُورًا .

2 - بم وصف الله تعالى الإنسان في الآيتين؟ وما الغرض من ذلك؟

3 - أبحث عن الأساليب البلاغية الواردة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرُ عِلْمٍ أَنِّي خَلَقُ مِثْلَهُمْ﴾، وأوظف ذلك في فهم معنى الآية.

الفهم

الشرح :

أَجَلًا : زماننا مجعولا غاية يبلغ إليها في حال من الأحوال، وشاع إطلاقه على الحياة.

خَزَائِي : أرزاق.

لَا مَسَكْنَم : لبخلتم.

فَتُورًا : مبالغا في البخل.

استخلاص مضامين الآيات:

1- على من رد الله سبحانه في هذه الآيات؟ وبماذا؟

2- بم وصف الله تعالى الإنسان في الآيات؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولا: رد الله سبحانه على منكري البعث بالحجج القاطعة:

لما أنكر المشركون البعث في الآيات السابقة، رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَالِدٌ يُعَلِّمُ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾. الهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ﴾ للاستفهام التوبيخي، وهي داخلة على محذوف. و"الرؤية" هنا رؤية القلب.

وقوله سبحانه: ﴿فَالِدٌ يُعَلِّمُ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ يحتمل بأن يكون المراد: قادر على أن يخلقهم مرة ثانية، فعبر عن ذلك بلفظ المثل. ويحتمل أن يكون المراد: قادر على أن يخلق عبيدا آخرين يوحدونه ويعبدونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.

[محمد: 38].

وهذه الآية احتجاج عليهم فيما استبعدوه من البعث، وذلك أنهم يقرون بخلق الله تعالى واختراعه لهذه الجملة التي البشر جزء منها، فهم لا ينكرون ذلك، فكيف يصح لهم أن يقروا بخلقه للكل وإخراجه من خمول العدم، وينكرون إعادته للبعض؟ فحصل الأمر في حيز الجواز، وأخبر الصادق الذي قامت دلائل معجزاته بوقوع ذلك الجائز.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيَّرْ بِخَلْقِهِ رِيقًا عَلَّمَ أَنْ تُجِيزَ الْمَوْتُ بِلَى إِنَّهُ عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 32]. وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَفَعَلْنَا خَلْقًا أُخْلِفُمْ﴾ [يس: 80]. ولما بين الله سبحانه بأنه قادر على البعث وأنه ممكن الوجود، أردفه ببيان أن لوقوعه وقتا معلوما، فقال: ﴿وَجَعَلَ لِلْهَمِّ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ "الأجل" هنا يحتمل أن يريد به القيامة، ويحتمل أن يريد أجل الموت. وهو على هذا التأويل اسم جنس؛ لأنه وضعه موضع الآجال. ومقصد هذا الكلام بيان قدرة الله عز وجل وملكه لخلقه، وبتقرير ذلك يقوى جواز بعثه لهم حين يشاء لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿فَأَبَى الْكَافِرُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: عبارة عن تكسبهم وجنوحهم.

ثانيا: البخل من طباع الإنسان وسجاياه:

بعد بيان الله تعالى تكذيب الكفار بالبعث والحشر، أردف ذلك ببيان بخلهم ولو امتلكوا خزائن السموات والأرض، فقال سبحانه: ﴿فَلَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ إِلَهِ نَبَاقٍ وَكَانَ إِلَهِ نَسْرِ فُتُورًا﴾، حكم ﴿لَوْ﴾ أن يليها الفعل إما مظهرا وإما مضمرا يفسره الظاهر بعد ذلك، فـ ﴿أَنْتُمْ﴾ مرفوع بفعل يفسره ما بعده، كقول حاتم الطائي: لو ذات سوار لطمتني. والتقدير هنا: قل: لو تملكون أنتم تملكون خزائن، فـ ﴿أَنْتُمْ﴾ رفع على تبع الضمير. و﴿رَحْمَةٍ﴾ في هذه الآية: المال والنعم التي تصرف في الأرزاق، ومن هذا سميت رحمة. و﴿إِلَهِ نَبَاقٍ﴾ المعروف ذهاب المال، وهو مؤد إلى الفقر، فكأن المعنى خشية عاقبة الإنفاق. وقال بعض اللغويين: أنفق الرجل معناه افتقر، كما تقول: أترب وأفتقر. وقوله: ﴿وَكَانَ إِلَهِ نَسْرِ فُتُورًا﴾

أي: ممسكا، يريد أن في طبعه ومنتهى نظره أن الأشياء تنتهى وتنفى، فهو لو ملك خزائن رحمة الله لأمسك خشية الفقر، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذْ آلَاءٌ يُّوتَوْنَ النَّاسَ نِفِيرًا﴾ [النساء: 52] وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّا إِلَٰهٌ نَّسْلُ خُلُقٍ قَلُوعًا ۝۱۹ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝۲۰ وَإِذَا مَسَّهُ الْغَيْرُ مَنُوعًا ۝۲۱ إِلَّا الْمَصْلِيُّ﴾ [المعارج: 19 - 22].

وكذلك يظن أن قدرة الله تعالى تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تنتهى، فهو مخترع من الخلق ما يشاء، ويخترع من الرحمة الأرزاق، فلا يخاف نفاد خزائن رحمته. ويدل على كرمه وسخائه سبحانه ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ قال: " يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يده " [صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقَتْ بَيْدِي﴾]

ثالثا: مقاصد الآيات:

تسعى هذه الآيات لتحقيق جملة من المقاصد التربوية، منها ما يأتي:

- تأكيد الله سبحانه على وقوع البعث، ببيان أنه كما قدر على خلق السموات والأرض والإنسان أول مرة وهو مما يعترف به المشركون، فهو سبحانه قادر على إعادة خلق الإنسان وإحيائه بعد موته، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: 26]

- منة الله تعالى بنعمه على عباده إذ أمهلهم إلى أجل معلوم رحمة بهم وفضلا منه سبحانه وطمعا في استقامتهم وتوبتهم.

- تذكير الله تعالى عباده بقدرته التي لا تنتهى، فهو يخترع من الرحمة والأرزاق ما يشاء كما يخترع من الخلق ما يشاء.

التقويم

- 1 - أستدل انطلاقاً من الآيتين على وقوع البعث، مبيناً أوهام المشركين بخصوص ذلك.
- 2 - ما وجه المبالغة في وصف الإنسان بالبخل؟
- 3 - ما أثر الإيمان بالبعث والحساب في تركية النفس ونفع الغير؟

الاستثمار

قَالَ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ اللَّهُ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: "وَالْأَجَلُ هُنَا مُحْتَمَلٌ لِإِرَادَةِ الْوَقْتِ الَّذِي جُعِلَ لَوُقُوعِ الْبُعْثِ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى. وَوَجْهُ كَوْنِ هَذَا الْجَعْلِ لَهُمْ أَنَّهُمْ دَاخِلُونَ فِي ذَلِكَ الْأَجَلِ لِأَنَّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ يُبْعَثُ حِينَئِذٍ، فَتَخْصِيصُهُم بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْبُعْثَ (...) وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَجَلُ أَجَلَ الْحَيَاةِ، أَيْ: وَجُعِلَ لِحَيَاتِهِمْ أَجَلًا، فَيَكُونُ اسْتِدْلَالًا ثَانِيًا عَلَى الْبُعْثِ، أَيْ: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لِحَيَاتِهِمْ، فَمَا أَوْجَدَهُمْ وَأَحْيَاهُمْ وَجَعَلَ لِحَيَاتِهِمْ أَجَلًا إِلَّا لِأَنَّهُ سَيُعِيدُهُمْ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى، وَإِلَّا لَمَا أَفْنَاهُمْ بَعْدَ أَنْ أَحْيَاهُمْ؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي أَنْ مَا يُوْجِدُهُ الْحَكِيمُ يَحْرِصُ عَلَى بَقَائِهِ وَعَدَمِ فَنَائِهِ، فَمَا كَانَ هَذَا الْفَنَاءُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ إِلَّا فَنَاءً عَارِضًا لِاسْتِقْبَالِ وُجُودٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ وَأَبْقَى."

[التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور: 15 / 222]

أتأمل النص وأجيب عن الآتي:

- 1 - أستخرج من النص معنى الأجل.
- 2 - كيف يمكن الاستدلال على وقوع البعث انطلاقاً من النص؟

أتأمل الآيات: 101 - 104 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: تَسْعَاءِ اَيَلٍ بَيِّنَاتٍ - مَسْخُورًا - مَثْبُورًا - يَسْتَعِزُّهُمْ - لَيْعِبًا .

2 - هل يتأثر المشركون بالمعجزات التي يؤيد الله سبحانه بها رسله؟

3 - ما المقصد من ذكر الله تعالى لإهلاك فرعون ومن معه بعدما كذبوا بمعجزات موسى؟